المقدمة

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى[١] : "قال تعالى(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ).

وجد الدارسون الكلاسيكيون أنه من الصعب المحافظة على منظور متوازن كهذا، واتجهوا بدلاً من ذلك لتحويل "الشرقي" و "الغربي" إلى ثنائية تتضمن النقيض و الصراع حيث أخذ الإغريق يشعرون بهويتهم الخاصة كهوية منفصلة عن الشرق عندما نجحوا في صد هجمات الإمبراطورية الفارسية، و لكن لم يدخل مفهوم ومصطلح *الشرق* إلى لغات الغرب[٢] فعلياً إلا بعد مراحل متأخرة جداً و في فترة الحروب الصليبية. وقلما تعلل هذه الحقيقة، حتى أيامنا هذه، أسباب الصعوبة التي يواجهها المرء في تبني أية مناقشة نزيهة عن العلاقات بين الإغريق و الشرق. ويبقى على كل من يفكر بالقيام بأية محاولة من هذا النوع أن يضع في حسبانه بأنه سيواجه مواقف متزمتة وعدم ارتياح واعتذار، إن لم يكن استياء حيث يتم استبعادٌ قليلٌ لكل ما هو أجنبي ومجهول بشيء من الحذر.

و إلى حد كبير فإن هذا الموقف هو نتيجة للتطور الفكري الذي بدأ منذ قرنين وأخذ يتجذّر في ألمانيا بشكل خاص حيث التقى التخصص المتنامي للدراسة الأكاديمية مع إيديولوجية الحماية لِيُكَوِّنا معاً صورة عن بلاد الإغريق الأصيلة و القديمة كبلد متميز عما حوله. و بما أن فقه اللغة كان مرتبطاً بشكل وثيق بعلم الدين، فإن الكتاب العبري كان ملازماً لدراسة الثقافة الإغريقية حتى القرن الثامن عشر؛ هذا ولم يشكل وجود العلاقات المتداخلة أياً من المشاكل. لقد كانت ابنة جيفثا Jephtha وافيجينيا Iphigenia نموذجين متبادلين

حتى في مجال الأوبرا. كما و تم تقفي أصل أيابيتوس Iapetos إلى يافس Japheth و كابيروي Kabeiroi إلى أسماء ساميّه مخصصة "للآلة الكبار" ؛ و وُجِدَ "الشرق" في اسم قدموس الفينيقي و وُجِدَ الغرب في اسم يوروبا[3] Europa. وطبقًا للأوديسة وهيرودوتسHerodotus، فقد كان الفينيقيون مقبولين بسهولة كصلة وصل بين الشرق و الغرب.

وبعدها أقامت الاتجاهات الثلاثة الجديدة حدودها وفتتت مجتمعة محور الشرق–بلاد الإغريق ؛ و انفصل فقه اللغة التاريخي عن علم اللاهوت– وسجل فيدريك أوكست ولف Friedrich August Wolf كطالب في فقه اللغة التاريخي في كوكتنغن في[4] ١٧٧٧– وفي نفس الوقت فرض مفهوم جديد للكلاسيكية، و هو مفهوم ذو نزعة وثنية، نفسه مع جوهان جوشيم وينكلمان Johann Joachim Winckelmann ، وأخذ يلقى تقديراً كبيراً. وثانياً، تطورت طريقة التفكير القومية الرومانتيكية مع بداية أعمال جوهان جوتفريد هيردير Johann Gottfried Herder ونظرت هذه الطريقة للأدب و الثقافة الروحية على أنهما ذواتا صلة وثيقة بأفراد الشعب و القبيلة و العرق؛ و بذلك أصبح المفتاح إلى الفهم هو الأصول والتطور العضوي بدلاً من التأثيرات الثقافية المتبادلة. لقد أحرز كارل أوتفريد مالير تأثيراً قوياً بأفكاره عن "ثقافة الإغريق القبلية"[5] وذلك من خلال ردة فعله على نموذج فريدريك كروزر الأكثر عالمية. و على وجه الدقة، ففي الوقت الذي كان يأخذ فيه اليهود كامل الحقوق القانونية في المساواة في أوروبا فإن الوعي القومي - الرومانتيكي اتجه ضد الاستشراق، وبذلك أعطى فرصة لمعاداة السامية. ثالثاً، إن اكتشاف علماء اللغة "للهندو- أوربية"، الذي يعني اشتقاق معظم اللغات الأوروبية بما في ذلك اللغة الفارسية و اللغة السنسكريتية من نموذج أصلي عام، كرّس في ذلك الوقت التحالف بين اللغات الإغريقية و الرومانية و الجرمانية و بذلك أبعد السامية إلى عالم آخر[٦]. و بقي هذا الاكتشاف ليدافع عن استقلال الإغريق ضد أقاربهم الهنود ضمن العائلة الهندو - أوربية[٧] من أجل توطيد مفهوم الهوية اليونانية الكلاسيكية - القومية كنموذج حضاري يتمتع باحتواء و اكتفاء ذاتي. و بقي ذلك المفهوم مسيطراً على الأقل في ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر[٨]. إن التقييم الساخر

ليولرش فون ويلاموفيتز- مولیندورف Ulrich Von Wilamowitz- Moellendroff في عام ١٨٨٤ ، والذي مفاده "بأن شعوب و دول الساميين و المصريين، التي تفسخت منذ قرون و التي على الرغم من قدم ثقافتها، لم تكن قادرة على تقديم أي شيء للهيلينين أكثر من بضعة مهارات يدوية و أزياء و كل ما يُبْقي على الذوق الرديء و زخارف قديمة و أصنام مثيرة للاشمئزاز لآلهة مزيفة أكثر إثارة للاشمئزاز" ، لا يُمثّل أعماله حيث أنه أكدّ فيما بعد بأن روح العصور القديمة المتأخرة قد انبثقت "من الشرق و أنها العدو القاتل للهيلينية الحقيقية"[٩].

هنالك على ما يبدو شيء من عدم الأمان وراء هذه النزعة الغامضة. و في الحقيقية فقد ازدادت أهمية الصورة الهيلينية المستقلة التي لا يشوبها شوائب و التي حققت ظهوراً متميزاً من خلال هومر لدى ثلاث مجموعات ذات اكتشافات جديدة في القرن التاسع عشر وهي: إعادة اندماج الشرق الأدنى ومصر من خلال حل رموز الكتابة المسمارية والهيروغليفية؛ و الكشف عن الحضارة الميسينية Mycenaean؛ و التعرف على مرحلة تأثيرات الشرق في تطور الفن الإغريقي القديم .

و لقد رحب فقه اللغة الكلاسيكي بهذه الاكتشافات و لكن بشيء من التردد؛ و تم تدريجياً قبول الفترة الميسينية على أنها فترة ما قبل التاريخ الإغريقي[١٠]؛ ثم جاء الفك النهائي لترميز السطر ب Linear B و الذي إعْتُبِرَ سطراً إغريقياً ليؤكد هذه الحقيقة. قد ينظر فرع الدراسات الأكاديمية الموثوق به إلى تطور علم دراسة الحضارة و اللغة الآشورية و الصعوبات الأولية لقراءة اللغة المسمارية حيث دخل جلجامش تحت قناع ازدبار[١١] بشيء من التوجس و على درجة من التركيز. فعندما حاولت بعض الدراسات غير المنهجة المساعدة على إظهار الأهمية الأساسية للأدب البابلي في علاقته بتاريخ العالم، حينئذ تُرِكَ الأمر إلى علماء الدين لإثبات خطأ مقولة "كل شيء من البابليين"[١٢]. هذا و لم يكتب عن هومر و البابليين[١٣] إلا الغرباء عنهم. و من ناحية أخرى، فإن علماء التاريخ لم يواجهوا نفس الصعوبة عندما انفتحوا على أبعاد جديدة لتاريخ العالم حيث بدأ ايدوارد مبير Edward

Meyer بنشر عمله الهام و المؤثر بعنوان *التاريخ القديم* في عام ١٨٨٤ ؛ و في الحقيقة فقد كان هذا العمل إنجازاً أساسياً فريدا من نوعه[١٤]. و قد تم متابعة هذا الهدف العالمي من خلال مشروع جماعي تمخض عنه كتاب *كمبردج للتاريخ القديم*.

وبالمقارنة فقد سادت حركات عضوية لكل ما هو ضد الشرق في المناطق الأكثر قرباً للهيلينين و ذلك من حيث تقييم الفينيقيين الذين كانوا يُعتَبرون في القديم الوسطاء الفعالين بين الشرق و هيلاس. نشر يوليس بيلوش، و هو دارس موهوب كانت نقطة ضعفه نزوته الخاصة و عدائه الفعلي للسامية، نظرية مفادها أن أهمية الفينيقيين في أوائل الدولة الإغريقية كانت قريبة من الصفر و أن "الفينيقي" هيراقل الساسوسي لم يكن أقل وهماً من قدموس الفينيقي الخرافي[١٥]. و بدلاً من ذلك، فقد تبين له بأن آسيا الصغرى القديمة كانت ذات أهمية خاصة حيث بدأ يظهر منها الهندو- أوربيون حالما تم فك رموز اللغة الحثية. و هكذا أُقيمَ حاجز ضد السامية.

و مع ذلك فإنه من غير الممكن غض النظر عن التأثير الواضح "للشرقي" على الفن الإغريقي بين العصور الهندسية و العصور القديمة حيث كان هذا التأثير واضحاً من خلال مواد مستوردة بالإضافة تقنيات جديدة وخصائص عامة متكررة للتصوير الفني وذلك على الأقل بعد نشر كتاب فريدريك بولس في عام[١٦] ١٩١٢. و يبدو أحياناً أن الخبراء من علماء الآثار كانوا غير مرتاحين لهذه الحقيقة حيث كانوا في الواقع يقدمون النصيحة بعدم استعمال تعبير "حقبة تأثير الشرق"[١٧]. و تبقى العناصر الأجنبية موضوع سياسة الاحتواء. فقلما نجد كتاباً موحداً يحتوي على مواضيع شرقية و إغريقية مصورة جنباً إلى جنب؛ وإن الكثير من المكتشفات الشرقية في المعابد الإغريقية الكبرى بقيت لفترة طويلة ـ وبعضها ما يزال راقداً ـ دون أن يُنشر. و قلما تتم الإشارة إلى أن أولمبيا هي الموقع الأكثر أهمية للمكتشفات البرونزية الشرقية و أنها، في هذا المضمار، أغنى من كل مواقع الشرق الأوسط.

شجع الاتجاه التفسيري الجديد في ألمانيا في الفترة ما بين الحربين العالميتين على التركيز على الفرد، أي الشكل و الأسلوب "الداخلي" في تفسير المنجزات الثقافية، الأمر

الذي انعكس بالضرر على التأثير الخارجي. و بذلك يكون علم الآثار قد حقق فهماً أعمق للأسلوب القديم و اكتشف من جديد الأسلوب الهندسي. تمنى بعض علماء التاريخ مثل هيلمت بيرف أن يتم نبذ فكرة التاريخ "العالمي" لصالح الهيلينية[١٨]. و بقي العمل المشترك لفرانز بول Franz Boll و كارل بيزولد Carl Bezold في ميدان الفلك الغامض ظاهرة جيدة ولكن منعزلة. و لقد فشل هناك اختصاص آخر في شدِّ الانتباه العام ألا و هو اكتشاف أتو نيغباور Otto Neugebauer الذي يقول بأن "نظرية فيثاغورث" قد عرفها و استعملها علماء الرياضيات البابليون قبل ألف سنة من مجيء فيثاغورث[١٩]. و من بين علماء فقه اللغة الألمان، أخذ فرانز دورنسيف Franz Dornseif بمفرده نظرة عميقة للثقافة الشرقية من إسرائيل حتى الأناضول، و لقد غلبت عليه الحيادية عند قيامة بذلك.

كان دورنسيف أول من أعطى مصداقية للبعد الجديد لمفهوم تأثير الشرق الأدنى على بلاد الإغريق القديمة الذي إكْتُشِفَ عندما تم فك رموز النصوص الأسطورية الحثية[٢٠]. وعلى أية حال، فقد قوبلت الدراسات و الإعلانات الأولى "لإليويانكاس Illyankas وتايفون Typhon" بردود بسيطة فقط. و جاء الأكتشاف الهام مع ظهور نص *مملكة في السماء* الذي نُشِر في العام ١٩٤٦ حيث ورد في الأسطورة خَصْيُ كوماربي Kumbari لإله السماء؛ فكانت هذه القصة شبيهةً بحكاية هيسيود عن أورانوس و كرونوس إلى حد كبير. و منذ ذلك الحين تم توطيد التوازي بين كوماربي - كرونوس؛ و كنتيجة لجهود آلبن ليسكي Albin Lesky الكبيرة أصبح *كوماربي* نصاً مرجعياً قياسياً لعلماء فقه اللغة القدماء[٢١]. وهناك عامل قَبْولٍ آخر أوجده المتعاطفون مع الهندو- أوربيون يقول بأن الشعب الهندو- أوربي قد ظهر مع ظهور الحثيين ليُمثِّل الشرق. و لكن بظهور الملحمة و الأسطورة الحثيه بدأت تحظى نصوص مشابهة من السامية الأوغاريتية على انتباه الدارسين الكلاسيكيين[٢٢]؛ وجذبت الأجزاء الإغريقية المتفرقة من فيلون البابيلوس، التي تتعامل مع الأسطورة الفينيقية[٢٣]، الاهتمام من جديد. و بالإضافة إلى الأفكار الأسطورية العامة المتكررة، فقد أصبح فن السرد القصصي و الأسلوب الأدبي للملحمة موضوع دراسة مقارنة أيضاً. و منذ ذلك الحين لم يعد

من الممكن أخذ الملحمة الهومرية على أنها وجدت من الفراغ ؛ لقد ظهرت على خلفية قابلة للمقارنة مع الأشكال الأدبية الشرقية .

وعلى أية حال، فقد تطور بسرعة خط دفاع جديد، إذ تم بشكل عام ودون عوائق قبول وجود اتصالات بين الأناضول و الشرق السامي و مصر و العالم الميسيني في العصر البرونزي؛ حتى أنه وُجِدَ أن اللهجة الإيجية كانت سمة القرن الثالث عشر قبل الميلاد.[٢٤] كما يمكن الإشارة إلى أشياء مستوردة إلى الميسينين من أوغاريت، و الإشارة إلى مدينة ألاسيا القبرصية على أنها صلة الوصل بين الشرق و الغرب؛ و قد تم النظر إلى هيسيود و هومر من نفس المنظور. أما الشيء الذي لم يتم التركيز عليه بشكل كاف فهو "حقبة تأثير الشرق" في القرن ما بين السنوات ٧٥٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد تقريباً، أي العصر الهومري و ذلك عندما انتقلت المهارات و الصور الشرقية بالإضافة إلى فن الكتابة السامية إلى بلاد الإغريق و أصبح تسجيل الأدب الإغريقي ممكناً للمرة الأولى. وُجِد عند الدارسين الألمان على وجه الخصوص نزعة غريبة للميل إلى إعطاء الكتابة الإغريقية[٢٥] تأريخ أقدم، و بذلك كانوا يُؤَمِّنون الحماية لبلاد الإغريق الهومرية من تأثير الشرق، الذي طالما كان جلياً من خلال الثقافية المادية منذ حوالي العام ٧٠٠. ينبغي أن يكون واضحاً، على أية حال، أن كلا الاحتمالين، أي العصر البرونزي و التبنيات اللاحقة، لا ينفي كلٌ منهما الآخر؛ إذ لا يمكن استخدام استحالة رسم الخطوط الدقيقة و الواضحة لدحض خطأ فرضية الاستعارة في كلتا المنطقتين بالقدر نفسه.

وفي نفس الوقت جعلت البحوث في علم الآثار "عصور الانحطاط" قابلة للقراءة بشكل متزايد وأسدت على القرن الثامن انفراجاً جلياً بشكل خاص. أما ما كان حاسماً فهو العثور على مستوطنات إغريقية في سورية و في جزيرة إسيشا وذلك من خلال التنقيب عن الآثار في ليفكاندي و إريتريا (مدينة إغريقية قديمة على الساحل الجنوبي لـ يوبي) في يوبي. إن توسع الآشوريين باتجاه البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى انتشار تجارة فلذات المعادن في المنطقة برمتها و انتشار الأبجدية الفينيقية - الإغريقية[٢٦] يوفر إطاراً مُقنِعاً لحركة الحرفيين الشرقيين غرباً. و يبدو أننا نقترب الآن من صورة متوازنة عن العهد الحاسم الذي بدأت فيه

الثقافة الإغريقية، تحت تأثير الشرق السامي، بازدهارها المنقطع النظير حيث بدأت على الفور بالأخذ بناصية الهيمنة الثقافية في دول البحر الأبيض المتوسط[٢٧].

يتتبع هذا المجلد الفرضية التي تقول بأن الإغريق لم يقتصروا في فترة تأثير الشرق على استقبال بعض الحرف اليدوية و الأصنام التي رافقتها مهنٌ وصورٌ جديدةٌ من ميدان العالم اللوياني - الآرامي - الفينيقي فحسب، بل تأثر دينهم و أدبهم بالنماذج الشرقية لدرجة كبيرة[٢٨]. ستتم مناقشة الفكرة التي مفادها أن المهاجرين "محترفو المقدس" و المتنبئين الجوالين و قساوسة التطهير لم ينقلوا مهاراتهم بالشعوذة و التطهير فحسب، بل نقلوا أيضاً عناصر "الحكمة" الأسطورية. و في الحقيقة فإن هومر عَدَّد في مقطع في الأوديسة بعنوان "من هم العمال العاميون" - سيتم الاستشهاد بهذه الفقرة بين الحين و الآخر - أنواعاً مختلفة من المهاجرين الحرفيين؛ إنهم: أولاً "المتنبئ أو الشافي"، ومن ثم النجار، بالإضافة إلى المغني الإلهي[٢٩]. ففي الوقت الذي يحاول فيه الفصل الثاني تقفي آثار "المتنبئين" و"الشافيين"، فإن الفصل الثالث يلتفت إلى مملكة هؤلاء المغنين ليعرض أوجه التناظر بين الأدب الشرقي والأدب الإغريقي حيث أن هذا التماثل قد فسح المجال لاحتمال وضع فرضية عن وجود اتصالات و حتى تأثير أدبي مباشر للحضارات الشرقية الراقية على الملحمة الهومرية في المرحلة الأخيرة، أي مع بداية معرفة القراءة و الكتابة الإغريقية، وذلك عندما أخذت الكتابة زمام القيادة من التراث الشفهي.

أما النتائج التي يمكن التوصل إليها على درجة من اليقين فتبقى محدودة؛ ذلك أن الجسر، الذي وفر الاتصال المباشر في وقت ما، وهو الثقافة الأدبية لسورية القديمة، قد اختفى و بشكل لا يمكن استعادته نهائياً. ومن ناحية أخرى فإننا نملك فرصة فريدة من نوعها لمقارنة النصوص المعاصرة من الجانب الإغريقي و الجانب الشرقي؛ وإن هذه المهمة تمكننا من الدقة و تتطلب منا الدقة أيضاً. و بالمقارنة فإنه في حالة الاتصالات الأكثر إثارة بين كومباري أو إلويانكاس و هيسيود، فإن هناك فجوة زمنية تتراوح بين خمسة أو ستة قرون بحاجة إلى الردم إضافة للمسافة الجغرافية بين الشرق و الغرب. لن نناقش هنا المشاكل الهيسيودية، التي كانت

موضوع اهتمام الكثير من الدراسات في العقود الأخيرة، بالتفصيل لأن هذه المشاكل تكمل المواقف التي هي موضوع النقاش، و خاصة في مجال الصلة الواضحة بين هيسيود ويوبي.

إن الدراسات التي يقدمها هذا الكتاب ما تزال تواجه صعوبات نهائية و ربما لا يمكن فصلها عن خط الدفاع الأخير؛ ألا و هو النزعة القائمة في هذه النظريات الثقافية الحديثة لمقاربة الثقافة كنظام يتطور من خلال عملياته الداخلية الاقتصادية و الاجتماعية و الحركية؛ إنها نظرة تقلص كل المؤثرات الخارجية وتضعها في نقطة لا قيمة لها. لا أحد ينكر الانجازات والدقة الفكرية لنظريات كهذه، و مع ذلك فربما أن هذه النظريات مازالت تمثل وجهاً واحداً من وجهي الحقيقة فقط، إذ أنه لمن المفيد النظر إلى الثقافة كمركب من التواصل بفرص مستمرة للتعلم من جديد وذات حدود تقليدية و لكنها قابلة للاختراق في عالم منفتح على التغيير و الاتساع. ربما يكون تأثير الثقافة المكتوبة، مقارنة بالثقافة الشفهية، من أحد الأمثلة الأكثر وضوحاً في تحويل حدث من الخارج و ذلك من خلال الاستعارة. و ربما مازال صحيحاً القول بأن حقيقة الاستعارة يجب أن توفر نقطة البداية فقط من أجل تفسير أدق؛ أي أن شكل الانتقاء و التكيف، و إعادة العمل و إعادة الانسجام مع نظام جديد يتسم بالإيحاء و المتعة في كل حالة على حده. و لكن يجب أن لا يحجب "النقل الإبداعي"، الذي قام به الإغريق[٣١] أياً كانت أهميته، حقيقة الاستعارة المطلقة، لأن ذلك سيعني رسم إستراتيجية تحصينية جديدة مصممة للتعتيم على كل ما هو أجنبي و غير مريح.

إن الهدف المتواضع لهذا الكتاب هو تقديم خدمة و كأنه رسول بين الحدود[٣٢] لتوجيه انتباه دارسي الكلاسيكية إلى مناطق لم يعيروها إلا النذر اليسير من اهتماماتهم وجعل هذه الميادين من الدراسة في متناول جمهور كبير حتى من غير المختصين. كما يمكن لهذه الدراسة أن تشجع المستشرقين أيضاً، الذين قلما تفارقهم نزعة الانعزال، ليحافظوا أو يجددوا اتصالاتهم في الميادين المجاورة[٣٣]. أما تأكيدي على تقديم الدلائل على التناظرات واحتمالية الاستعارات فقد كان مقصوداً. هذا وإن لم تقدم المواد نفسها دلائل غير قابلة للجدل على النقل الثقافي في بعض الحالات، فإن إثبات التشابه بين الأشياء سيبقى ذو قيمة،

وذلك لأنه يقدم خدمة تقوم بتحرير كلٍ من الثقافة الإغريقية والظواهر الشرقية من عزلتها ويوجد مجالاً تصبح المقارنة فيه ممكنة.

هذا لا يعني إقصاء تفسيرات أكثر دقة للإنجازات الإغريقية المتميزة. ومع ذلك ففي الفترة منذ حوالي منتصف القرن الثامن، عندما تم توطيد الاتصال المباشر بين الآشوريين والإغريق، يُفْتَرَضُ في الثقافة الإغريقية أن تكون أقل وعياً لذاتها، وبالتالي أكثر هشاشة وأكثر انفتاحاً على التأثير الأجنبي مما أصبحت عليه في الأجيال اللاحقة. إنه عهد تشكيل الحضارة الإغريقية التي شهدت تجربة ثورة تأثير الشرق.

obeikandl.com